

تعالق النقد الثقافي في مناهج النقد المتعددة

د. نزار السعودي

يعد النقد الثقافي واحداً من التيارات النقدية الحديثة التي اتصفت بالتكاملية، فقد وسع دائرة اهتمامه وانفتح على فضاءات العلوم الأخرى، حتى غداً يتشكل من أسئلة ما بعد الكولونيالية حول القهر الاستعماري، ومن أسئلة دراسة النوع (الجنس) إضافة إلى الدراسات النفسية والاجتماعية المتصلة بالفلسفة الماركسية، كما أخذ يتشكل أيضاً من أسئلة الاجراءات الأنتولوجية، ومن تطبيقات النقد الأدبي والجمالي، مما جعله في نهاية الأمر أشبه بـ "تجمع أطراف مختلفة تشبه في تجمعها ألوان قوس قزح المتنوعة، وهذه الأطراف المختلفة هي ما تضمه النظرية النقدية المعاصرة (١)، وعلى الرغم من التكاملية التي يتصف بها النقد الثقافي إلا أن ذلك قد يحرمه من امتلاك مبادئ ونظريات خاصة به، وهذا ما أشار إليه بعض الدراسين (٢)، خاصة وأن مصادره التي استقى منها فلسفته تنحصر في مصادر ثلاثة بحسب رؤيه (هوجارت Hogart) الرئيس المؤسس لمركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة، وهي: "تاريخية وفلسفية أولاً، وإلى حد ما سوسيولوجية وأخيراً أدبية نقدية" (٣)، ويظل لهذا الشمول والانفتاح مداخلة الايجابية، وذلك عائد لقبول النقد الثقافي الأشكال الأخرى من النقد، ورفضه "هيمنة" نوع منها منفرداً، إذ يعني ذلك قصوراً في الكشف عن الكثير من العلامات الدالة في سياق النصوص (٤)، فالفائدة النقدية المتحققة بفعل هذا الانفتاح تفيد كثيراً في قراءة النصوص بعمق والكشف عن علاقة الثقافة بالنص الأدبي ومدى التفاعل الحاصل بينهما.

مرغوب فيه، سواء وجدت مقاومة أو لم توجد، وتوضح ملامح السلطة في الأدوات والأساليب والإجراءات المؤثرة في أفعال الآخرين (٦)، فالسلطة والهيمنة يشتركان في فكرة واحدة تلخص في ارتباطهما بالمصالح النفسية، وحينما تعارض أفكار ما هذه المصالح تتصدى لها السلطة/ الهيمنة الثقافية، ذلك أن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو "إنتاج مراتب ومنتقى ومنظم ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها في الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، واخفاء ماديته الثقيلة والرهبية" (٧)، ويرتبط مفهوم الهيمنة والسلطة بالماركسية وعلم السياسة، إذ يمكن تطبيقه على النماذج الأدبية المنتجة بفعل القرب من الساسة، فالخطاب السلطوي يقصد إلى "التأثير في المحكومين

ولما وجد الباحث أن ثمة تنوعاً كبيراً في مصادر النقد الثقافي وتعدداً في النظريات والمناهج التي أفاد منها، حرّك هذا التنوع والتعدد أسئلة حول أهم المفاهيم والقضايا التي ركز عليها النقد الثقافي، وكيفية إفادته منها، فكان ذلك محرضاً على البحث والتقصي لإبراز هذه القضايا والمفاهيم.

أولاً: مفهوم الهيمنة الثقافية والخطاب السلطوي؛

من أبرز الذي تحدثوا عن (الهيمنة) وتمثلاتها (أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci) وقد قصد بها امتلاك فئة متقنة أو هيئة ما أو مؤسسة معينة القدرة على التأثير ثقافياً وفكرياً في المجتمع، مما يسمح لتلك الفئة أو الهيئة أو المؤسسة أن تهني صعود طبقة اجتماعية معينة وسيطرتها على الطبقات الأخرى اعتماداً على تنظير متفنيها (٥)، كما خص (ميشيل فوكو Michel Foucault) في كتاباته مفهوم آخر يقارب مفهوم الهيمنة، وهو مفهوم السلطة (power) ويعني بها القدرة على تحقيق ما هو

سعيًا وراء تأطير نظري أكثر دقة وفائدة، إذ أن النقد الثقافي لا يزال في طور النمو، ويحتاج إلى معاودة النظر في أهم المفاهيم والقضايا التي طرحها، فما هي أهم المفاهيم التي طرحها النقد الثقافي وكيف تعامل معها؟ هذا ما ستحاول هذه الورقة البحثية إبرازه وتبسيط الضوء عليه. تعددت المفاهيم التي أفاد منها النقد الثقافي بحكم التواضع والتعاليق المعرفي مع

وتشجيع قدرتهم على الانسجام في العمل، مما يجعلهم يستجيبون للتوجيه، وهذا يعمل على تشكيل شخصياتهم بطريقة مختلفة" (١٤).

وهكذا يحاول النقد الثقافي فحص الخطابات وإظهار مواطن الهيمنة الثقافية، القابعة بين ثنائياها، وفضح المتواري منها، والتي تسعى الى تمييط - فكر المتلقين /المهيمن عليهم، بما يخدم مصالح الفئة المهيمنة، أيا كانت هذه الفئة المهيمنة، سواء أكانت قوة سياسية أم دينية أم اجتماعية أم اقتصادية.

ثانياً: مفهوم النسق الثقافي

يعد مفهوم النسق الثقافي من أكثر المفاهيم استعمالاً لدى النقاد الثقافيين، وعلى الرغم من كثرة استخدامه، إلا أنه غير واضح المعالم، ولقد أشار محمد مفتاح إلى هذا الإشكالية حينما حاول تعريف النسق بمعناه العام، فقد ذكر أن له أكثر من عشرين تعريفاً، وقد خلص إلى أنه مجموعة من العناصر أو الأجزاء التي يترابط بعضها ببعض مع وجود مميزات خاصة بها، كاشتركت العناصر واختلافها، ووجود بنية داخلية ظاهرة وحدود مستقرة لدى الباحثين، إضافة إلى قبول المجتمع لهذا النسق (١٥)، ويمكن القول إن عبد الله الغذامي من أوائل النقاد العرب الذي قدموا توصيفاً نظرياً للنسق الثقافي اعتماداً على وظيفيته التي تتحدد بتعارض نسقين أو نظامين من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر بحيث يكون المضمّر ناسخاً للظاهر، ولا بد أن يكون ذلك في نفس واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد شريطة أن يوصف

بالتاريخ فهي علاقة وطيدة. فالنقد الثقافي بمحاولته فهم الحاضر لا بد وأن يستعين بالتاريخ، فهو يلقى الضوء على أثر الماضي في الثقافة المعاصرة، ذلك أن "الإدراك النصي الجديد للتاريخ صُنِعَ ليشجّع نقاد الأدب من أجل تشكيل تصور حول التاريخ بوصفه جزءاً من اللغة، ولكي يتأملوا فيما وراء التشكيلات الجمالية بغية قراءة الأدب في سياق علاقات القوة/ السلطة بالممارسة" (١١).

وقد تحدث (لوكاتش Lukacs) عن علاقة النظام الاقتصادي الماركسي بالهيمنة والسلطة، فيما سماه بـ (الاستلاب أو التشيؤ) (١٢)، وذلك في تحول قدرة الإنسان على اتخاذ قراره، وتمكّن حريته ليصبح إنساناً مسلوب الإرادة بمعنى أن الإنسان لا يتحكم في قدرة ومصيره، ولكن عالم الأشياء هو الذي يتحكم فيه، فتغدو المادية الثقافية هي الهيمنة على فكره وحياته.

وقد ارتبطت بعض المصطلحات بمفهوم السلطة لدى فوكو (Foucault)، ومن بين هذه المصطلحات التسلط والسيطرة والحكم والانضباط، ويحمل مصطلحا التسلط والسيطرة دلالات سلبية، فهما يعنيان "انتحال للحق في الأمر من دون تبرير ألبتة، أو من دون تبرير كافٍ أو مقبول، أو هو تجاوز للنطاق المعين للحق في الأمر" (١٣)، ولذلك يرى فوكو أنه يجب تجنب التسلط والسيطرة ما أمكن، داعياً إلى المصطلحين الآخرين وهما الحكم والانضباط وهما يعنيان تنظيم سلوك الأفراد بقصد التأثير فيه، وذلك بتزويدهم بمهارات خاصة للعمل على تنمية مقدرتهم على ضبط النفس،

بأفكار ومضامين سياسية، غير أنه يشمل خطاب المعارضة، فهو غالباً ما يحمل الأهداف والسمات ذاتها" (٨) ولذلك فإن مفهوم الهيمنة الثقافية/ الخطاب السلطوي يتسم بالمرابطة وعدم الثبات، إذ يتلون وفقاً لنظام المنفعة، والنقد الثقافي يحاول فهم طريقة بناء الثقافة للمعاني والممارسات الإنسانية والإنتاج الأدبي، إضافة إلى فهم السياقات المنتجة لهذه المعاني، بغية الكشف عن القوى السياسية المسيطرة التي أيدت ظهورها، فالهدف الرئيس للنقد الثقافي ليس مجرد دراسة الثقافة وفهمها وتحليل سياقاتها فحسب، بل "تداول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، واختبار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية" (٩). فالطبقة المهيمنة تتولى دائماً إنتاج ثقافة جديدة موحدة، تغذي الطبقة المهيمن عليها بالأوهام، وحينما تحاول الطبقة المهيمن عليها التمرد على الثقافة الجديدة تقوم الطبقة المهيمنة "بتحليلها وترويضها بل ابتلاعها لتصبح جزءاً من الثقافة المؤسسية" (١٠) وخطاب الهيمنة/السلطة يرتبط بعلاقات قوته مع كل من اللغة والتاريخ والاقتصاد والدين، فاللغة بعناصرها المبهمة تُستمر من قبل القائمين على السلطة، لتمير الأفكار وإقناع الجمهور المتلقي لها، فاللغة تعطي أحكاماً مسبقة عن الأشياء والخطاب السلطوي يفيد من تأثير اللغة على اللاوعي فتعد اللغة بمجازها أداة للسلطة والهيمنة الثقافية، فالجهاز اللغوي يولد المعاني والقيم توليداً مستمراً ما يمنحه استمرارية في توليد الهيمنة والسلطة.

أما عن علاقة الهيمنة /السلطة

الذي يوضع فيه، فتصبح القراءة الثقافية للنسق أقرب إلى القراءة التفكيكية التأويلية، التي ترفض الدلالات النهائية القطعية، وتفتح دائماً على معاني جديدة، "فالنصوص تنتج في سياق ثقافي ما، وعند قراءتها في سياق ثقافي مغاير تعطي معنى آخر، وهكذا كلما تعددت السياقات التي تقرأ فيها النصوص، تعددت معاني هذه النصوص" (٢١).

وبهذه الرؤية يمكن تصوّر النسق الثقافي على أنه نظام خطائي أيولوجي يمتاز بالتحول واللا ثبات، يؤدي وظائف تفسيرية، ويمكن له أن يكون أداة من أدوات الهيمنة على فكر المتلقي.

ثالثاً: اللاوعي الثقافي

أفاد النقد الثقافي من التحليل النفسي وعلم النفس، فالتنقد الثقافي كما ذكرنا عنه سابقاً نقد تكاملي، عابر للحقول المعرفية، ويمكن وصفه بأنه أقرب إلى الدراسات البينية Interdisciplinary التي تقيّد من المناهج والدراسات المتنوعة، ومن أهم المفاهيم التي أفادها النقد الثقافي من علم النفس مفهوم اللاوعي، وخاصة اللاوعي الجمعي ممثلاً بالقيم والعادات الاجتماعية وتخيّلها بين ثنايا النص الأدبي، "فالمعنى مختزل في شبكة الثقافة، وفي مرحلة انتقاله من الثقافة إلى النصية ينخرط في سلطة النص، والنص يستتر على المعنى تحت حجاب النصية، كما تستقر الثقافة على المعنى تحت ستار التقييم والعادات والتقاليد" (٢٢)، ويأتي دور النقد الثقافي في الكشف عن اللاوعي الثقافي الجمعي الذي يتحكم ويسير المجموع العام، ومن أهم من ركز بحثه على

الإنساني "وذلك لجمعه بين وظيفة التفسير والاستيعاب للتجربة الإنسانية من جهة، وبين وظيفة التأثير والتحكم في سلوك الأفراد من جهة أخرى، فهذا النسق يفسر التجربة الإنسانية ويمنح ما هو فاقد للمعنى من حيث الأصل معنى، كما أنه بعد أن يكون كذلك، ينقلب نسقاً مهيماً يتحكم في تصورات الأفراد وسلوكياتهم" (١٨)، والنسق بهذا التصور يؤدي مهمتان، الأولى تفسير الثقافة، والثانية أداة من أدوات الهيمنة على فكر المتلقين، وتقارب هذا الرؤية رؤية الناقد (ليتش V.leitch) الذي يرى بأن النسق نظام من أنظمة عقلية ولا عقلية تُكشّف بالممارسة الفعلية للتحليل، وهذه الأنظمة "ذات سمات متضاربة، كانت تبدو متماسكة ومفكّكة في الوقت نفسه وبالغة التعقيد والتعارض" (١٩)، وهذه الأنظمة تتسم بالاختلاط والمكر، لذا ينبغي تبني استراتيجيات عميقة للكشف عنها.

ويرى الباحث أن النسق الثقافي يقارب الأيدولوجيا كثيراً في تشكّله، فتحولات الأيدولوجيا في بواطن الخطاب ومكانته بما يخدم الفئة المهيمنة هي التي تشكّل النسق، ولعل هذا ما عناه (إيجلتون Eagleton) من أن التأويل الثقافي للنص "معنيّ بفحص الرؤى الأيدولوجية، والممارسات الاجتماعية في بنية الخطاب الأدبي، بوصفها أساقفاً غير بريئة" (٢٠) وحتى يتحدّد النسق الثقافي لا بدّ من وضع النص الخطاب وتفسيره داخل السياق الثقافي لمؤلف النص، أو داخل سياق القارئ نفسه، وهذا ما يجعل من النسق الثقافي مفهوماً قابلاً للتحويل، إذ أن طبيعة تمازج باتصافها باللاثبات، تبعاً للسياق

النص الجمالية والجماهيرية (١٦)، غير أن الغدامي بهذا التحديد قد وقع في إشكاليات عديدة أهمها، إشكالية تحديد النسق الناسخ، فإن ما يراه الغدامي نسقاً ناسخاً قد يراه غيره معززا أو مكملًا، إذ لم يعد صالحاً وفقاً للنظريات النقدية فيما بعد البنوية حصر المعنى في اتجاه معين أو خطاب واحد، فالقارئ يتمتع بحرية لا يقيدتها إلفاء السياق النصي وحده، خاصة إذا كان النص فنياً أو جمالياً (١٧)، كما أنه أقام النقد الثقافي على النسق، وخص هذا النسق بالقبائح، متغافلاً عن جماليات النص الذي يرى بأنها وسيلة لتمرير القبحي وتزيينه، وهو بهذا التحديد للنسق يربط الإبداع الأدبي العربي بالقبيح الهجائي، فتحول لديه جل الإبداع العربي إلى هجاء نسقي خفي، ولذا كانت بداية النقد الثقافي العربي ضعيفة غير مرحب بها، بسبب هذه الأفكار التي حاولت إماتة النقد الأدبي، كما أن تطبيق الغدامي للنسق على الإبداع العربي جاء انتقائياً مجافياً للجانب العلمي، غير أن ذلك لا يمنع من الأخذ قليلاً برأي الغدامي في تحديده للنسق عند التطبيق على بعض النصوص الإبداعية التي تتوافر على التضاد النسقي الواضح، بعيداً عما طرحه من ضرورة وجود النسق الناسخ والمضاد في كل النصوص لتكتمل آلية النقد الثقافي، إذ أن رأيه القائل بضرورة توافر النسقين المتضادين لا تعضده دلائل علمية، وهذا ما حدا بالدارسين إلى استخدام النسق بمعاني مختلفة عما جاء به الغدامي، فمن الدارسين من يرى أن مفهوم النسق الثقافي يقع في منطقة وسطى بين البنية الاجتماعية والبنية الكامنة في العقل

ويمكنها أن تتحوّل إلى شيفرات غامضة، تخفي داخلها العديد من الدلالات الثقافية النفسية، التي يحاول الناقد الثقافي حل أسرارها، وكشف غوامضها الثقافية.

رابعاً: مفهوم الاستشراق وخطاب ما بعد الكولونيالية

انفتح النقد الثقافي على خطاب ما بعد الكولونيالية (post-colonialism) ليستمد منه رؤى ثقافية جديدة، تتعلق بدراسة كل من الاستشراق العنصرية والإمبريالية، والهوية والتجهين والهيمنة والمركزي والهامشي والآخر، مركزاً على أثر هذه المفاهيم في الأدب والثقافة، ويُعدّ (إدوارد سعيد) من أوائل الذين طُبِّقَتْ مواقفهم النظرية في "دراسة وكشف النظرات الأوروبية والأمريكية المُشوّهة للمجتمعات العربية في سلسلة من الكتب بما فيها الاستشراق" (٢٠) فالاستشراق نطاق سردي يربط بين الثقافة الغربية والفكر الإمبريالي، ويُعدّ بدراسة تأثير الإدراكات الغربية على الإسلام والشرق الأوسط، فلقد "تمت صياغة التصورات عن الشرق في إطار الهيمنة وسياق الخوض" (٢١) وبذلك يصبح الاستشراق حسبما يراه (إدوارد سعيد) طريقة غربية تهدف إلى إعادة السيطرة على الشرق والهيمنة عليه.

وقد كان الاستشراق مدخلا للاستعمار الأوروبي في منطقة الشرق، وقد حدث ذلك بفعل منه الأكاديميين الذين وظفوا فكرة الشرق وأفريقيا المظلمة "بوصفها مواقع للخصائص السالبة والمتماثلة، من أجل تعزيز الإيجابي الجذاب كما يبدوان في فكرة أوروبا" (٢٢)،

توازننا نفسياً واجتماعياً للذات، غير أن هذه الأنا تظلّ محكومة بسلطة الأنا العليا (super ego الرقيب الداخلي) الذي ينبو عن ثقافة المجتمع وعاداته في كبت الرغبات "وقد مهّد فرويد الطريق للنظريات التي تعترف بالدوافع الفردية في الوقت نفسه، الذي تعمل فيه على وضع هذه الدوافع في إطار التشكيلات الثقافية والأنظمة السياسية" (٢٦)، ومن هنا يتشكل الصراع بين الرغبة اللاواعية والرغبة الواعية، ويأتي دور الناقد الثقافي للكشف عن ملامح هذا الصراع وتمثلاته داخل الانتاج الأدبي، إذ يشكّل أيضاً هذا الصراع نموذجاً من نماذج الهيمنة على فكر المبدع.

وفكرة اللاوعي الثقافي ليست مرتبطة بالمبدع وحده، بل هي متصلة أيضاً بالقارئ، فالقارئ يواجه النص من خلال الأنظمة المترسبة في لا وعيه، ومن خلال ذكرياته القرائية" (٢٧).

ومن ارتباطات اللاوعي الثقافي الجمعي بعلم النفس يبرز اهتمام النقد الثقافي بالأسطورة، فعلى الرغم من أن الأسطورة تشير إلى وقائع حدثت منذ أمد بعيد، لكن ما يعطيها قيمة حقيقية هو أن ما تصفه "يكون غير ذي زمن محدد، أي أنها تفسر الحاضر والماضي وكذلك المستقبل" (٢٨)،

كما أن النقد الثقافي قد يفيد من تكرار الصور داخل الخطاب الأدبي، وذلك أن الصورة "إذا عاودت الظهور بالحاح كتقديم وتمثيل على السواء، فإنها تغدو رمزا، وقد تصبح جزءاً من منظمة رمزية أو أسطورية" (٢٩)، فالصورة الرمزية تشير في غالب الأحيان إلى اللاوعي،

التحليل النفسي الثقافي نقاد نيويورك، فقد "استخدموا عدة طرق نقدية للتحليل بما فيها التحليل النفسي، في سبيل تحقيق نقد ثقافي واسع النطاق" (٢٣).

واللاوعي الثقافي الجمعي هو مخزون أيديولوجي مركب في عقل الإنسان "يسيطر بقوة الدعم الاجتماعي وحراس الثقافة على عملية الإنتاج الفكري له، ويقود سلوكه في مجالات الحياة المختلفة" (٢٤)، فيصير اللاوعي الثقافي متحكماً في سلوك المجتمع بأسره، من خلال تفسير لاوعي أفرادها، وهو ما اصطلاح عليه (كارل يونغ Carl Yung) بالقمع، إذ يتشكل لديه القناع من امتزاج اللاوعي الفردي باللاوعي الجمعي، فهو يسمّي أجزاء اللاوعي المكبوتة باللاوعي الشخصي، ثم يبيّن أن إلحاق طبقات أعمق من اللاوعي، يسبب تضخماً في اللاوعي الشخصي، مما يشكل لديه اللاوعي الجماعي، فما نلظنه لا وعياً فردياً ما هو في حقيقة الأمر إلا لاوعي جمعي، يقود الأفراد بقوة سطوته الثقافية، وهذا ما عبر عنه (يونغ Yung) بقوله: "القناع يخفي جزءاً من النفس الجماعية ويعطي في الوقت ذاته وهما بالفرديّة قناع يدفع الآخرين ويدفعنا نحن إلى الاعتقاد بأن الكائن المعني فردي، في حين أنه في العمق يلعب دوراً تعبير معطيات وضرورات النفس الجماعية عن نفسها من خلاله" (٢٥).

فاللاوعي الثقافي متحكّم في اللاوعي الفردي، وكما هو معلوم أن ثمة علاقة وطيدة بين اللاوعي واللغة، وهذا ما أكدّه (فرويد Freud) الذي رأى أن الإبداع يقارب كثيراً عالم الأحلام، فالهو (ID) تولد الطاقات والفراغ المكبوتة التي تسعى الأنا إلى السيطرة عليها لتحقيق

من خطاب ما بعد الكولونيالية، قد ركز على الآخر المهمش، ودرس الذات وعلاقتها بالآخر، مع عدم تمييز بين الأدب النخبوي /المركزي والأدب الهامشي/ أدب الثقافة الدنيا، وقد سعى لتوجيه النقد نحو دراسة مدى تأثير كل تلك المفاهيم في الخطاب الأدبي وغير الأدبي، وبيان مدى التأثير المتبادل، وأثره على الثقافة.

خامسا: مفهوم النسوية الثقافية

استمد النقد الثقافي بعض طروحاته من النسوية، وقد جاء ذلك استكمالا لمشروع النقد الثقافي الذي يجمع بين النقد والأيدلوجيا، سعيا لفهم دور الثقافة في إعادة تشكيل العلاقات الجنسية والطبقية والعرقية، فقد ركزت دراسات النقد الثقافي على فهم علاقة المرأة بالمجتمع والرجل، وتحديد مواطن الهيمنة وآليات التخاطب الثقافي الصادرة نحو المرأة ومنها، بوصفها آخر مقيما أو متحولا من الهامشية نحو المركز، ولعل هذا التواضع بين النسوية والنقد الثقافي قد تم مع بدايات ظهور النقد الثقافي، حينما "اجتمع أثر النقد النسوي والعنقي واليساري، ليفرض الاعتراف بأن النصوص الأدبية هي بالأساس وثائق وأحداث اجتماعية، تحيل الى موضوعات اجتماعية تاريخية، إذ ركز النقد الثقافي على دراسة الاختلافات في الهوية بسبب الجنوسة (Gender) أو العرق (Race) وكشف الخطابات، وما تحويه من تحيزات تعود في معظمها لأسباب سياسية من قبل المركزية الذكورية Androcentrism، المتمثلة في سلطة الرجل، والتي تسعى الى تمييط المرأة تمييطا فكريا يحقق أهدافه (٤٠)، والنسوية تتداخل مع

الثقافية، مثل الدين فالهويات العرقية التي تعرضت للاضطهاد دائما ما يشار إليها بالازدواجية" (٢٦).

ومن النقد الثقافي البارزين الذين مارسوا النقد الثقافي في خطابات ما بعد الكولونيالية، الناقد (ستيفن جريبلات Stephen Greenblatt) فيما أسماه بالجماليات الثقافية، فقد رأى ان الثقافة نظام من القيود (الكوابح system of constraints) فمفهوم الثقافة لديه يشير الى قضايا متناقضة لديه مثل الكبح (constraint) والحراك (mobility) ويمكن استخدام الثقافة في دراسة الأدب، فقد حددت الحدود الثقافية في الأدب العربي من خلال المدح والهجاء (٢٧)، وهو يرى أن الأعمال الأدبية المتصلة بالمدح والهجاء، سرعان ما تذبل بانتهاء الأفراد التي صيغت لأجلهم، ولكن الوعي بالثقافة يساعدنا على استرداد المعنى، والإحساس الأصلي ببناء الحدود التي قامت عليها تلك الأعمال عند وجودها للمرة الأولى، بتوجيه الاهتمام نحو المعتقدات التي يتضمنها العمل الأدبي (٢٨)، وتبعاً لذلك فإن ثمة أسئلة ثقافية لا بد وأن تُطرح على العمل الأدبي لكي يُفهم ثقافيا وأهمها: "ما السلوك والممارسات التي يلتزم بها العمل؟ هل يشعر القارئ في زمان ومكان بأن هذا العمل قادر على فرض نفسه؟ من قيّد حريته أو حركته تلميحا أو تصريحاً بسبب هذا العمل؟ هل من اختلافات القيم التي يقدمها العمل وبين القيم التي يؤمن بها المتلقي؟ ما المؤسسات الاجتماعية التي يمكن أن ترتبط بها الأعمال في المدح والهجاء؟ (٢٩)

وهكذا نرى أن النقد الثقافي في إفادته

ونج عن دراسة الاستشراق مفهوم الآخر، ويقصد به نقيض الذات، وهو تصنيف استعبادي يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسسة (٢٣)، ويُعنى النقد الثقافي في خضم درسه للآخر بفهم تجليات أنساق الآخر السياسية والاجتماعية الاقتصادية في الثقافة عموما، ونتج عن التفاعل بين الذات والآخر ثقافة جديدة مهجنة، وهي ما أشار إليها (هومي بابا Homi k. Bahbah) في كتابه (موقع الثقافة) حيث أسماها الفراغ الثالث، ويعني بها "عملية التهجين التي لم تكنف بمجرد احتلال مكان التاريخ الذي أنشأها، بل إنها ترسخ هياكل جديدة للسلطة، مولدة أولويات سياسية جديدة (٢٤) وهذا التهجين الثقافي يؤدي إلى إثراء الثقافتين مع عدم تمجيد للآخر على حساب الذات، وانطلاقا من هذه الرؤى نشأت فكرة الاهتمام بالأدب الهامشي، والاحتفاء به، ففي مجال الأدب توجه النقد الثقافي نحو إدراج أشكال الكتابة المستبعدة، وكتابات الجماعات المهمشة، مثل كُتاب الطبقات العامة والكتّاب الملونين، والذين طالبوا بالأدب الهامشي" لم يريدوا تدمير الأدب الرفيع في حد ذاته، بل أرادوا إضافة هذا الأدب الهامشي إلى الأدب الرفيع حتى تتوسع دوائر الاهتمام وتثرى (٢٥) كما اهتم النقد الثقافي في اطار دراسة لخطاب ما بعد الكولونيالية، بموضوعة الهوية، وهو ما ركز عليه عالم الاجتماع الأسيوي- بريطاني (علي راتانهي) الذي يرى بأنه في إطار الثقافات العنصرية أصبحت الهويات العرقية "عنصرية وهذا يحدث عندما يكون الخطاب المحدد حيويا وشعبيا ومرتبطا بشكل أساسي بالدلالات

تعبه وسائل الاعلام في فرنسا وقدّم نقدا لاذعا لتبعية المثقفين الفرنسيين لوسائل الاعلام بعامة، وخص التلفاز بدراسة خاصة، إذ كان له أكبر الأثر في " تكريس الأوضاع والمصالح السائدة، وفي التفرغ السياسي، والتلاعب بعقول المستهلكين من المشاهدين" (٤٧) فقوة التلفاز الاجتماعية المشكلة بفعل قوة تأثيره على لوعي الجماهير، وتمييط ذائقتهم الفكرية، يتحوّل إلى قوّة سياسيّة، وبذلك عدّ درس تأثير التلفاز ووسائل الإعلام بعامة قضية من أهم قضايا النقد الثقافي.

وتتشابك لدى الناقد الثقافي الرؤى في درسه للخطاب الإعلامي، إذ تتواشج الدراسة الاجتماعية على الدراسة الأدبية اللغوية، للكشف عن المؤشرات اللغوية غير اللغوية على الفكر الاجتماعي الجمعي، ويصير على الناقد الثقافي لزاما إن يوجّه نظره الفاحص حول أهم قضايا الخطاب الإعلامي، ومنها مسألة التضمين، أي أن يُعَمَلْ أدواته النقدية لفحص مضمون التقارير والمنتجات الإعلامية، التي تحتوي على صور ومناظر وخلفيات وثقافات خاصة بالمجموعات العرقية، ويبرز مدى قوتها الخفية في التعبير عن تلك المجموعات العرقية، كما يمكنه أن يتفحص " الدور المنوط بالأفراد من مختلف الجماعات الثقافية، من أجل تشكيل المنتج المرجو، وإلى أي مدى يمكنهم التحكّم في عملية الإنتاج" (٤٨)، وقريب مما ذكر آنفا يمكن للنقد الثقافي أن يقوم بدراسة الشيفرات الإعلامية المركوزة في ثنايا البرامج الإعلامية، وذلك على مستوى النص نفسه " إذ تستخدم هذه المنهجية بشكل رئيس في الإعلانات، لأنها وعلى الرغم من قصرها

للكشف عن الأثر الثقافي للخطابات النسوية وغيرها، فكل أثر فني حتى وإن كان مكتملا ومغلقا من خلال اكتمال بينته المضبوطة بدقة، هو أثر مفتوح على الأقل من خلال كونه يُؤوّل بطرق مختلفة، دون أن تتأثر خصوصيته، التي لا يمكن أن تختزل " ويرجع التمتع بالأثر الفني إلى كوننا نعطيه تأويلا، ونمنحه تنفيذًا ونعيد إحياءه في إطار أصيل" (٤٤).

سادسا: مفهوم الخطاب الاعلامي الثقافي:

جنحت الدراسات الثقافية نحو الاهتمام بما هو شعبي جماهيري، وجاء ذلك ضمن ما اصطلح عليه باسم الثقافة الشعبية / الثقافة الدنيا والتي استخدمت مقابلا للثقافة العليا / الأدب النخبوي، فالنقد الثقافي حاول دراسة الأثر الجماهيري الذي تتركه وسائل الإعلام لدى الجمهور، وقد بدأ ذلك بعد المؤتمر الذي نظمه الاتحاد القومي للمعلمين حول الثقافة الشعبية ووسائل الاعلام عام ١٩٦٠، حيث شكّل هذا المؤتمر علاقة فارقه في التحول نحو الثقافة الشعبية وبذلك " أصبحت الأبحاث المتعلقة بوسائل الإعلام والثقافة الشعبية من المحاور الرئيسية في النشاط المبكر لمركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام، الذي سرعان ما أدرج علم السيميولوجيا في دارة وسائل الإعلام والثقافة الشعبية" (٤٥)، كما عملت مدرسة فرانكفورت دراسات عن الإعلام وتساءلت عن يربح منها ومن يسيطر عليها (٤٦)، وقد أولى بيبرورديو Pierre Bourdieu اهتماما كبيرا للدور الذي

النقد الثقافي في رؤيتها لتشكيلات الهيمنة وفهم الخطاب الموجة نحو المرأة، بقصد تطويعها فكريا وثقافيا، وكذلك فهم الخطاب الصادر عن المرأة، رافضة تلك الهيمنة المجتمعية الذكورية أو مرحبة بها. تعرف النسوية بأنها حركة تسعى إلى إعادة تنظيم العالم على أساس المساواة بين الجنسين (ذكر / أنثى) في جميع العلاقات الإنسانية، رافضة كل تمييز بين الأفراد على أساس الجنس (٤١)، ويرى روادها أن ثمة انقلابا كبيرا قد أسقط الحق الأمومي، فتحوّل نظام المجتمع من نظام أمومي إلى نظام أبوي بطريكي، وتدرجيا تدنّت قيمة المرأة لتتحول إلى وعاء لتأمين متعة الرجل، ووسيلة لإنجاب الأولاد، ومن ثم تحولها الى عبدة للرجل (٤٢)، وتهدف النسوية إلى رفض كل أشكال الهيمنة الذكورية، وإلغاء الوصاية المجتمعية على المرأة، بوصفها مخلوقا أدنى درجة بسبب الاختلافات البيولوجية بينهما، وهذا ما يطلق عليه التمييز على أساس الجندر، أو النوع الاجتماعي.

ويظهر دور الناقد الثقافي ممارسته النقدية في الكشف عن تمظهرات الهيمنة الذكورية، وأثار التمرد الانثوي عليها في الخطاب بكافة أشكاله، وإن كان أدقّ ما يركّز عليه الإبداع الأدبي، فاللغة كما هو متفق عليه من أهم أدوات السلطة والهيمنة، وهذا ما أشار إليه (رولاند بارت Roland Barthes) بقوله: " إن اللغة ما إن يُنطَق بها حتى وإن كانت مجرد همهمة، فهي تصبح في خدمة سلطة بعينها" (٤٣) وبذلك تفتتح دلالات اللغة على معاني متعددة، ويصبح التأويل التنكيكي من أهم الآليات التي يعتمدها النقد الثقافي

يمكن أن تكون معقدة على هذا المستوى (٤٩)، ويظل بمكنة النقد الثقافي أيضا دراسة السمات المكونة لجنس معين، وعلاقتها بالواقع الثقافي والفكر الجمعي.

خلاصة ونتائج:

في الختام، وجد الباحث أن ثمة قضايا عديدة تتصل بمسألة تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة، وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- النقد الثقافي نقد تكاملي عابر للحقول المعرفية، أفاد من النقد الاجتماعي/ الماركسي، والنقد التفكيكي والنقد البنوي، وعلم النفس والنسوية، وخطابات الاستشراق وما بعد الكولونيالية، والخطاب الإعلامي.

- يعدّ مفهوم الهيمنة من أهم المفاهيم التي أفادها النقد الثقافي من النقد

الماركسي، وهو يتقاطع مع مفاهيم أخرى، كتقاطعه مع النسق ومع الدراسات الاستشراقية والدراسات النسوية والإعلام.

- يتصف مفهوم النسق الثقافي بالمرَاوغة والتحول تبعاً للسياق، وخلاصة الرأي فيه أنه نظام خطابي أيديولوجي يؤدي وظيفة تفسيرية للثقافة، أو يمكن له أن يكون أحد أدوات الهيمنة كما ذكر سابقاً.

- أفاد النقدُ الثقافيُّ مفهومَ اللاوعي الثقافي من علم النفس، إذ يتمثل دور الناقد الثقافي في الكشف عن ملامح اللاوعي الجمعي، المتحكم في المجموع العام، وتبعاً لذلك كثر الاهتمام بالأسطورة والرمز.

- نتج عن انفتاح النقد الثقافي على خطاب ما بعد الكولونيالية مفهومٌ

الأخر، إضافة إلى ظهور مفهوم الثقافة المهجنة والأدب الهامشي وكتابات الطبقة العاملة والمؤنّين، إضافة إلى تعميق النقد الثقافي لدراسة الاستشراق الذي مهّد المستشرقون من خلاله إلى السيطرة على الشرق وثقافته.

- سعى النقد الثقافي لفهم دور الثقافة في إعادة تشكيل العلاقات الجنسية والتطبيقية بين الرجل والمرأة.

- ركّز النقاد الثقافيون الذين درسوا تأثير الإعلام على قضية استلاب الفكر والهوية، وذلك بدراستهم للمضامين الفكرية المثبوثة في ثنايا البرامج الإعلامية المقدمة للجمهور، والمحمّلة بأفكار خفيّة تسعى لتميط الفكر بما يخدم مصلحة الجهة القائمة عليها.

الهوامش

- (١) الرباعي، عبد القادر، تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧، ص ١٥.
- (٢) انظر: ساردار، زيودين ولون، بورين فان، أقدم لك الدراسات الثقافية، ترجمة: وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٠.
- (٣) بعلي، حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارنة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٣٤.
- (٤) الضبع، مصطفى، أسئلة النقد الثقافي، مؤتمر أدباء مصر في إقليم المينا، ٢٠٠٢، ص ١٠.
- (٥) الرويلي، ميجان، والبازي، سعد، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا، ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٤٦-٣٤٧.
- (٦) هندس، باري، خطابات السلطة من هوبز إلى فوكو، ترجمة ميرفت ياقوت، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ص ١٢٦.
- (٧) المصدر السابق، ص ٢٠.
- (٨) القوسي، خالد سليمان، بحث بعنوان: بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب، ضمن كتاب: الكتابة والسلطة، بحوث علمية محكمة في الكتابة والسلطة، إشراف وتسيق: عبد الله البرعي، وسعيد كريمي، والبشير التاهلي، ١، ٢٠١٥، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ص ٥٢.
- (٩) ساردار، زيودين، وفان لون، بورين، أقدم لك الدراسات الثقافية، ص ١٢.
- (١٠) بعلي، حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي، ص ٤١.
- (١١) علميات، يوسف، النقد النسقي، تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٥، ص ١٢.
- (١٢) انظر: غانم، رمضان بسطاوي، علم الجمال عند لوكاتش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص ٧٩.
- (١٣) هندس، باري، خطاب السلطة من هوبز إلى فوكو، ص ١٦.
- (١٤) المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٧.
- (١٥) مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١، ١٩٩٦، ص ١٥٨-١٥٩.
- (١٦) الغدامي، عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط ٤، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٨، ص ٧٧.
- (١٧) الرباعي، عبد القادر، جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ١، عمان، دار جرير للنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص ١٢١.
- (١٨) كاظم، نادر، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١، ٢٠٠٤، ص ٩٥.
- (١٩) الشجيري، سحر والتنمية، عبد الله، سيرورة النقد الثقافي عند العرب، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، ٢٠١٤، المجلد ٢٢، العدد ١، ص ١٧٥.
- (٢٠) علميات، يوسف، النسق الثقافي، قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٩، ١، ط ١، ص ٦٧.
- (٢١) يوسف، عبد الفتاح أحمد. (٢٠٠٧). استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي. مجلة عالم الفكر، الكويت، ٢٠٠٧، (١) ٢٦، ص ١٨١.
- (٢٢) المصدر السابق، ص ١٧٢.
- (٢٣) ليتش، فنسنت، النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات، ترجمة محمد يحيى، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١١.
- (٢٤) يوسف، عبد الفتاح أحمد، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ١، ٢٠١٠، ص ٥٢.
- (٢٥) يونغ، غوستاف، جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ١، ١٩٩٧، ص ٦١.
- (٢٦) إيميج، دينر، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي، القرن العشرون، المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ترجمة فائق مرسى، تحرير: ك، نلوف، ك، نوريس، ح، أوزبورن، مراجعة: رضوى عاشور، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٩١٩، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٧٧.
- (٢٧) يوسف، عبد الفتاح أحمد، استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي، ص ١٨٢.
- (٢٨) أنظر مقدمة المترجم، شاكر عبد الحميد لكتاب: الأسطورة والمعنى، ل كلود ليفي شتراوس، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١، ١٩٨٦، ص ٥.

- (٢٩) ويليك، رينيه، وارين، اوستن، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص١٩٧.
- (٣٠) ليتش، فنسنت، النقد الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينات، ص٤٠٥.
- (٣١) ساردار، زيودين، وفان لون بورين، أقدم لك الدراسات الثقافية ص١١٠.
- (٣٢) عمليات، يوسف، النقد النسقي، ص١٨.
- (٣٣) الشجيري، سحر والتيمي، عبد الله، سيرورة النقد الثقافي، ص١٧٦.
- (٣٤) ساردار، زيودين، وفان لون بورين، أقدم لك الدراسات الثقافية، ص١٢٤.
- (٣٥) المزروعي، فاطمة، تمثيلات الآخر في ادب قبل الإسلام، ص٢٢.
- (٣٦) ساردار، زيودين، وفان لون بورين، أقدم لك الدراسات الثقافية، ص١٢٩.
- (٣٧) Greenblatt, Stephen; culture. from " Cultural terms for literary studies " Chicago and London University press. ١٩٩٥, p. ٢٢٦.
- (٣٨) المصدر السابق ٢٢٦p, ٢٢٦.
- (٣٩) ٢٢٧. ibd. p.
- (٤٠) المزروعي، فاطمة، تمثيلات الآخر في أدب ما قبل الإسلام، ص١٨.
- (٤١) رغرغ، تيريزا بيلينغتون، فصل من كتاب النظرية النسوية مقتطفات مختارة، جمع ونيدي كيه، كولنار وفرانسيس بارتوكوفسكي، ترجمة: عماد ابراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٠، ص١٨.
- (٤٢) عمرو، أحمد، النسوية من الراديكالية حتى الإسلامية قراءة في المنطلقات الفكرية، مجلة البيان، الرياض، العدد الثامن ٢٠١١، ص١٤٤.
- (٤٣) القوسي، خالد بن سليمان، بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب، ص٥٥.
- (٤٤) إيكو، أمبرتو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، اللاذقية، ط٢، ٢٠٠١، ص١٦.
- (٤٥) ويدن، كريس، الدراسات الثقافية بحث ضمن موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي، ص٢٤٦-٢٤٧.
- (٤٦) كرانغ، مايك، الجغرافيا الثقافية، ترجمة سعيد منناق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٥، ص١٢٣.
- (٤٧) بوريو، بيير التلفزيون واليات التلاعب بالعقول ترجمة: درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص٩.
- (٤٨) ساردار، زيودين ولون، بورين فان، أقدم لك الدراسات الثقافية ص١٦٣.
- (٤٩) ديورنغ، سايمون، الدراسات الثقافية مقدمة نقدية، ترجمة: ممدوح عمران، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠، ص١٩٦.